|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **الجامعة اللبنانية****كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية** |  | **الجيش اللبناني****كلية فؤاد شهاب للقيادة والاركان** |

**العنف بين الدين والسياسة**

**الدكتور كميل حبيب**

**عميد كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية**

**22 آذار 2017**

**العنف الديني**

**مقدمة:**

العنف الديني ليس شعاراً نطلقه لضرورات سياسية، أو لأهداف آنية أياً كانت أهميتها. هو حقيقة لم تغب عن التاريخ الانساني منذ كان الاجتماع البشري. صحيح ان البشر يمارسون العنف لأسباب متعددة، ولكن الصحيح ايضاً أن الاسباب الدينية شكلت أبرز عناوين العنف، ولعل العنف المنطلق من خلفيات دينية هو أكثر اشكال العنف شراسة وضراوة.

العنف الديني يتجاوز في حضوره ما شهده الفضاء الاوروبي في القرنين السادس والسابع عشر؛ إنما هو عنف ضارب عميقاً في التاريخ البشري حيث حرصت غالبية الشعوب على تغليف صراعاتها بطابع ديني بحثاً عن شرعية لهذه الصراعات، والأكثر بحثاً عن الحشود التي تحتاجه والتي يعتبر البعد الديني من أكثر الأبعاد بريقاً وجذباً للحشود. فالحرب المقدسة تدخل من أبواب الخلاص الذي كان وما زال وسيبقى ضالة الانسان التي يبحث عنها بكل قواه. وبإختصار شديد، إن القتل والقتال بإسم المقدس والقداسة والماورائيات يبرر للإنسان أفعاله ويجعلها سبيلاً لمحاكاة المقدس، وتالياً، سبيلاً للخلاص الموعود. إنه قتال وعنف بإسم الله ولأصله، وهل هناك من عنوان للعنف يضاهي هذا العنوان؟

**دوافع العنف الديني**

عاشت البشرية سلسلة متصلة من جحيم "**الحروب الدينية"** و**"العنف الديني"،** وصولاً للقول ان هذا العنف بأٍساطيره وسرديانته الكبرى صار أٌقرب الى الايديولوجيا بتعريفها الكلاسيكي، وهذا الطرح على اهميته متأتٍ من حرص مورس وما زال على إلباس المصالح السياسية والاقتصادية لباس القداسة، لأنه اللباس الأفضل الذي يضاهي أعتى انواع الاسلحة بقدرته التدميرية، ولعل ما نعيشه اليوم من مشاهد دموية واجساد تنفجر طوعاً واختياراً طلباً للخلاص والتقرب من الله خير دليل على فعالية هذا السلاح ودوره وسهولة امتلاكه. ولا أبالغ إن قلت ان الدين كان وما زال وسيبقى ولأسباب عديدة مجالاً للإستثمار بمشاريع سياسية واقتصادية. فهو للأسف الشديد يشبه البترول العائم، سهل الاستخراج، وبالتكلفة الارخص.

صحيح ان الدافع الديني لم يكن مستقلاً قبل القرن السابع عشر عن بقية الدوافع الانسانية؛ الا أنه كان أبرز الدوافع تبريراً للعنف، وآلية للحشذ نعم، الدين ما قبل الحداثة شكل نمطا للحياة وطريقة في الوجود، الاّ أنه كان دائماً عنوان الحروب، دفاعاً عن الآلهة وانتصاراً وبمعزل عن حقيقة هذه المبررات. فالعنف الديني هو الأكثر تغلغلاً في لجم سائر الانشطة الانسانية وهو محركها الأول والأساس. فلا يوجد جماعة بشرية إلا ومارست العبادة، ومارست العنف بإسم ما تعبد دفاعاً عنه، او تعميماً لحضوره ونشره، بغض النظر عن حقيقة الأهداف الكامنة الحقيقية التي كانت السبب في الحروب والصراعات.

والعنف لا يقتصر على القتل والقتال، بل يتجلى بأشكال عديدة. والعنف الديني يبدأ بإعداد إمتلاك الحقيقة المطلقة مروراً برفض الآخر وعدم الاعتراف به، وتالياً، إقصائه او تهميش دوره، او التمييز على أساس ديني. فإدعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، يتبعه الإعتقاد بالاصطفاء، والاصطفاء يؤلّد الاستعلاء والاستعلاء بيت القصيد في كل عنف وإرهاب.

أدرك جيداً أن "العنف الديني" كان غطاء لأسباب أخرى تتماثل معه وأحياناً تتناقض. فتفحّص حالات العنف الديني الكبرى تكشف بشكل جلي عن وجود عشرات العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتداخلة والمتشابكة مع العامل الديني، والتي تناقضه احياناً. ومثالاً على ذلك، فإن النصف الثاني من الحروب الدينية الاوروبية كان صراعاً بين الهابسبورغ الكاثوليك والبوردن الكاثوليك ايضاً، وقد تحالف الفرنسييون الكاثوليك في بدايات تلك الحروب مع السويد اللوثرية. ولعل الباحثة **كارين ارمسترونغ** في كتابها **"حقول الدم: الدين وتاريخ العنف**" تنبعث بشكل موضوعي حالات العنف الديني عبر التاريخ وفككتها كاشفة عن هشاشة السردية التاريخية لأسطورة العنف الديني. وعلى أهمية ما طرحت، إلاّ ان الصحيح أيضاً ان هذه الأسطورة إن سلمنا بها جدلاً، كانت في كثير من فصولها حقيقية، واقعية وليس خرافات او خيال، بغض النظر عن الغطاء الذي شكله "العنف الديني" للأسباب الحقيقية المستترة.

**إن القول بشراسة "العنف الديني" ليس محاولة لشيطنة الدين، ولا هو سعي للمساس بالإيمان، لكننا امام حقائق دامغة تقول بوضوح ان جلّ العنف الذي عرفته البشرية وأشرسه، كان الدين والدفاع عنه العنوان الأبرز لهذا العنف. صحيح ان الانسان يشكّل العنف فيه غريزة، والصحيح ايضاً أنه بحث دائماً عن إشباع هذه الغريزة وفقاً للتطورات الحياتية ولم يجد أقصر من الطريق الديني سبيلاً مقنعاً لتبرير هذا الحضور الغرائزي للعنف فيه.**

لم يعد التلكوء مقبولاً في مواجهة جماعات العنف والارهاب الديني، لأنها باتت تهدد البنى الاجتماعية والاستقرار. ولعلّ المطلوب وبشكل ملح هو رفع الغطاء الديني والاجتماعي عنها، فلا فرق بين فصل الارهاب وغطائه، كما ان رفع هذا الغطاء المفترض هو المقدمة الضرورية لتفكيك خطاب جماعات العنف الديني والثقافي.

**العنف الديني ومأزق المنطق والمنطقة**

إن السؤال المركزي الذي يطرحه تنامي حضور حركات العنف الديني يختصر بكيفية مواجهتها. وتالياً، تخليص مجتمعاتنا منها؟

الإجابة على هذا السؤال ليست بالمهمة السهلة، فهذه الظاهرة تشكلت بفعل العديد من العوامل المتشابكة، بدءً بأدلجة التأويل، مروراً بنصوص دينية واضحة تتبنّى هذا الفكر، وتراث حافل لعنف ألبس لباس الدين وصار مع الوقت جزءاً من المقدس. كما ان التناقض بين الاديان ساهم الى حدّ بعيد في تنامي ظاهرة العنف الديني، وتحديداً في عالمنا العربي الذي يعاني الأمرين من ارهاب يستند الى أيديولوجية تلمودية تبرر العنف بأبشع صوره، والإرهاب المنظّم بشكل فاضح، الأمر الذي استدعى ولادة عنف مضاد، نجح الكيان الصهيوني وامتداداته الدولية في تحويل اتجاهه وجعله جزء من مأزق المنطقة بدل ان يكون رداً على عنف وارهاب دولة الكيان. وهذا التوصيف يجب ابرازه وإعطائه الحيّز اللازم ثقافياً واعلاميّاً.

فالدور الواضح لإسرائيل في دعم حركات العنف الديني ليس جديداً، لكنه اصبح أكثر خطورةً؛ فهو يلامس تفكيك كيانات المنطقة وتحويلها الى جماعات دينية على أسس مذهبية متقاتلة في حروب لا سقف زمني لها، ولا حدود واضحة لانقساماتها. ولعلّ غياب منطق الحوار، وتنقية التراث العربي والإسلامي، بشكل علمي وموضوعي يساعد كل المتربصين بأمن وأمان مستقبل المنطقة ومناعة مكوناتها، نعم، لم يرتقِ حوار المذاهب الى المستوى المطلوب لتخطي تداعياته السلبية، وكان جلّ القائم أقرب الى ما نجيده من احتفاليات موسمية هي في غالبيتها تأجيل الوقوع في المأزق بدل معالجة اسبابه الجذرية.

شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين ظهور نزعة "الكفاح" الدينية، وشاعت تسميتها بالأصولية، وهذه النزعة لم تكن حكراً على دين بعينه، وإن كانت أكثر بروزاً في المجتمعات ذات الغالبية الاسلامية. والأزمة ان هذه النزعة بحثت لإكتساب شرعيتها عن اعداء وغالباً ما لوت عنق النص الديني تأويلاً لتبرير هذا العداء. وشهدنا فصولاً من العنف المتبادل بدأ خجولاً لكنه تنامى بشكل دراماتيكي وهذه سمة أساسية من سمات العنف الديني، إنه ينتشر بسرعة انتشار النار بالهشيم.

ليت العداء الديني ينحصر بظاهرة القلة التي تنحو نحو العنف، فإننا نلحظ ان المسالمين يستحكم العداء بينهم، أو هم يستقيلون من دورهم المطلوب لمواجهة العنف والغوغاء. والأكثر، ان انتشار العنف الديني يترافق مع عودة لإحياء الأصول. فنجد رفض الحقائق العلمية لصالح السرديات الكبرى، ونجد العودة الى التزام معايير سلفية صارمة تتناقض ومعطيات الحداثة وما قطعته هذه المجتمعات من اشواط مهمة ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، ليتحوّل الدين الى محور الحياة، ويتقدم الدين على الثقافي والعلمي، حتى في المجتمعات الأكثر تطوراً. فالألتزام الديني اليوم يلامس حضوره السنوات الأولى لانبلاج كل دين من الاديان.

إن الجهد الحقيقي يجب ان ينصب على استعادة حضور القضية الفلسطينية الى قلب الضمير الجمعي العربي، ومواجهة محاولات تهميشها وجعلها في أسفل سلم الأولويات العربية. إن تغييب القضية الفلسطينية هو تغييب لعدو العرب الحقيقي، وفتحاً للأبواب امام اجتهادات لتوليد اعداء جدد، ولن يجد أصحاب هذه المآرب صعوبة في تأويل النصوص الدينية لتبرير هذا العداء والصراع

**هي الاجتهادات في زمن الوجبات السريعة تحاكي التطورات السياسية المتسارعة وحاجتها الى شرعية يقوم عليها خطاب غرائزي يؤمن الوقود المطلوب من ارواح شاخصة الى السماء طلباً للخلاص.**

**النص الديني، التأويل، والواقع**

الثورة على السلطان، اسقاط الحاكم، الخروج على ولي الأمر، عناوين تُلًّبس لباس الدين لتحقيق اهداف سياسية واضحة، حتى أن اصحاب هذه العناوين لم يعودوا قادرين على اخفاء الأبعاد السياسية في قراءتهم لفقه الخروج على الحاكم، وهم أنفسهم كانوا لسنوات قليلة خلت ولأهداف سياسية من عتات القائلين بحرمة الخروج.

الخروج على الحاكم بالعنف، مسألة في غاية الأهمية، وهي مثار جدل وتباين وصراع بين تيارات اسلامية، تتسابق على تأويل النصوص خدمة لموقعها السياسي ومصالحها؛ سباق وصراع تستعمل فيه كل الأسلحة ويغيّب عنه العقل، لأن السؤال حرام.

**ففي حضرة "أدلجة التأويل" وضرورات أن تكون هذه الأدلجة ممهورة بختم مقدس الخروج عنه خروج من الملة، أو أقله غباء يعوزه التفقه بشؤون الدين.**

إن السعي لطرق هذا الباب والغوص في محيط تفاصيله، مع كل ما يحمله من خطر الاصطدام بواقع مأزوم، تقتله أوهام الهواجس، مرتهن لأجندات سياسية خارجية تملي عليه قراءات متعددة للنص الواحد ليقدم تبريراً شرعياً لمعارك وحروب أقل ما يقال فيها انها حروب عبثية تماثل الانتحار. والأكثر، هي مراهنة مقيتة تتناقض والمصالح الحقيقية لأصحابها. فالانتصار للدين لا يكون نحراً له خدمة لأعدائه المفترضين....

لقد أرغمت العلمنة والعولمة الأديان على الانفصال عن الثقافة، وعلى ان تعتبر نفسها معتقلة وتعيد بناء ذاتها في فضاء لم يعد اقليمياً، وبالنتيجة، لم يعد خاضعاً للسياسي. وينجم فشل الدين السياسي (حكومة دينية) من أنه أراد منافسة العلمنة في ميدانها الخاص: الفضاء السياسي (أمة، دولة، مواطن، دستور، نظام قانوني) فكنا امام إمعان في توريط المقدس في تفاصيل اليومي المعيشي.

وفي ظل فضاء حل فيه الاعلام محل المعرفة، كنا امام احيائية دينية ليست (كما تصور) رد فعل على العلمنة بل هي ثمرتها. ومع إدراكنا الأكيد أنه ما من عوده للدين، بل تحول لن يفضي الى عصر ديني جديد. والدراسات التي تبرز ضجيج الاحيائية الدينية بغياب الممارسة الدينية كثيرة وذات مصداقية عالية؛ مع الاعتراف بصعوبة قياس الممارسة الدينية، الأ ان الواضح اننا أمام إعادة صياغة للدين لا عودة الى ممارسات سلفية.

نعم إننا بصدد طفرة دينية، العنف عنوانها الأبرز، وهي تكتسب قوتها من:

1. زوال الصفة الإقليمة
2. فقدان الهوية الثقافية

فالأديان يمكن ان تنتقل خارج ثقافتها الاصلية لأنها عرفت كيف تفقد هويتها الثقافية.

يترتّب على فقدان الهوية الثقافية نتائج أساسية أبرزها:

* تحوّل المسافة بين المؤمن وغير المؤمن الى حاجز حيث تغيب المسافة الوسيطة بغياب الهوية الثقافية.
* فقدان البداهة الاجتماعية للدين
* توحيد النمط
* إزالة العمق الثقافي وإستبداله وتحت إسمه بمجموعة من المعالم الدينية.

وهذا بحد ذاته تأسيس لمناخ يساعد على دفع التوجهات العنفية قدما وبشكل متسارع ويجعله عنفاً متفلتاً من أي ضابط.

إذا هو نسق سوسيولوجي يتأسس على نظرية "المحاكاة التقليدية" وهي حجر الزاوية لفهم العلاقة الجدلية التي تربط المقدس والعنف كأصل للصراع الإجتماعي. فمفاهيم: الآلهة، الذبيحة، الطقوس، الأساطير، الرغبة المحاكاتية، يجمعها بعد واحد هو مركزية "الأنا" في علاقتها بالذات وعلاقتها بالآخر. ولعلّ ما نشهده من عنف متصاعد يعود الى اتساع دائرة المحاكاة الغـــير قابلة للقسمة، وتولّد الرغبــــات المولّدة للصــــراع والعنف - - العنف المقدس المتأتي من احتكار الحقيقة المطلقة.

**خاتمة:**

إن الصراع الديني لم يغب عن أي دين وهو جدار تتلطّى خلفه عوامل إقتصادية وسياسية، يسعى أصحابها لتغليفها بشعارات براقّة كونها الأكثر تأثيراً. فالعنف بإسم الدين مستحب كونه يمارس بإسم الله.

ومع أننا ندرك براءة الله من عنف بإسمه يحوله الى ارهابي، إلاّ أننا ندرك أيضاُ ان الفهم المؤدلج للدين بالتأويل الحرفي للنصوص، والجهل بفهم السياقات التي ولدت بها هذه النصوص يجعل الإرهاب والمصالح التي تحركه يستسهل سلوك طريق العنف الديني.

العنف المقدس يدور في فلك الجمود والتقوقع والانغلاق والأحادية، بينما العنف السياسي متحرك، ويحتاج الى مبررات أكبر من القتال بإسم الله.

العنف والعنف الديني غالباً ما يجد في الواقع المأزوم أرضاً خصبة للنمو والتكاثر. فالغضب الذي يختزنه الجمهور من واقع التهميش الذي يتخبط به، يجعل هذا الجمهور تواق لتفجير هذا الغضب، والمعطى الديني هو الأكثر قدرة على اشعال فتيل الغضب وتحويله الى عنف مدمر.

ونجد ان العنف الديني حاله حال العنف عموماً يتجاوز أصحابه، فلديه من الخصائص التدميرية ما يجعله قادراً على تجاوز كل الوسائل، ويصبح الوسيلة الوحيدة التي تسيطر على السلوك العام، حيث يمكن التنبؤ ببداياته. لكنه يتفلّت فيعم، ويتخطّى الأسباب الموّلدة ليصبح بحد ذاته هدفاً، فتغلب الوسيلة الغاية ويصير العنف ثقافة.

والعنف الديني ليس أحادي الجانب، فهو يبالغ بفبركة عدد الاعداء الوهميين تبريراً لإستمراره؛ فإستمراره استمرار للجماعة، التي غالباً ما ترى نفسها مصطفاة، فتستعلي محتكرة الحق بالبقاء والأفضلية والحكم والسيطرة. فهي صاحبة الحق المطلق بتمثيل الله، وعنفها رغبته والطريق الى الخلاص ونيل رضاه....